الإسلام :
صفاته الكلية والجزئية

سيد حسين نصر

كل دين سماوي هو « الدين » وهو، في آن واحد، « دين ما » . هو « الدين » من حيث احتواؤه على الحق وعلى الطريق المؤدي الى الحق ، وهو « دين ما » من حيث تركيزه على جانب خاص من مظهر الحق وفقا للحاجات الروحية والنفسية للامة التي انزل عليها وخوطبت به. وقد اشتقت كلمة «دين» في اللغات الاوربية من كلمة لاتينية تعني الايثاق . فالدين هو ما يوثق الانسان بالحق . وهكذا لا بد من وجود عنصرين اساسيين في كل دين ، وهما ركيزتاه : عقيدة تميّز بين المطلق والنسبي ، بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية ، بين ما له قيمة مطلقة وما له قيمة نسبية ؛ وطريقة للتركيز على الحقيقة ، لربط الانسان بالمطلق ، وللعيش حسب مشيئة الله تعالى وفقا لغاية الوجود الانساني وما ينطوي عليه من المعاني .

هذان العنصران ، العقيدة والطريقة ، وهما وسيلتا التمييز بين ما هو حقيقة وبين ما يبدو وكأنه حقيقة ، يوجدان في كل دين اصيل كامل . بل هما في الواقع جوهر كل دين . فلا يمكن لاي دين، سواء كان الاسلام او المسيحية ، ان يكون بدون عقيدة تحدد ما هو مطلق وما هو نسبي . لغة العقيدة هي وحدها موضع الخلاف بين دين وآخر . ولا يمكن لاي دين ان يكون بدون طريقة للتمركز على الحقيقة والعيش حسب مقتضياتها مع ان الطرق تختلف في العوالم الدينية المختلفة .

ينطوي كل دين على ايمان بحقيقة متسامية تعلو على عالم التغير والتحول . ومع هذا فلا يزعم اي دين ان العالم ، على مرتبة وجوده الخاص ، غير حقيقي بالمرة . ولو كان الروح والعالم غير حقيقيين بالمرة لما كان هناك من معنى في ربط الروح بالحقيقة وبالمطلق. وهكذا فان العقيدة تميز بين المطلق والنسبي، بين درجات من الحقيقة، درجات من الوجود الكلي. والطريقة هي بالضبط وسيلة ربط الحقيقة النسبية بالحقيقة المطلقة ، عندما يدرك الانسان ان حقيقة الروح والعالم الذي يحيط بها ليست مطلقة بل هي نسبية وان كلا الروح والعالم يستمدان وجودهما من حقيقة اعلى من الروح ومن العالم معا .

والاسلام ، ككل دين اصيل ، يتألف من عقيدة ومن طريقة . علينا ان نرى كيف يعالج الوحي الاسلامي هذين العنصرين الجوهريين ، وكيف ينظر الى العلاقة بين الانسان

والله. فالله تعالى هو، بالطبع، المطلق، والانسان هو النسبي. وعلى الانسان نفسه ان يدرك هذه الحقيقة، ان يدرك ان لا اله الا الله، اي ان الله هو المطلق الوحيد، وان الانسان كائن نسبي يقف بين يدي الله وله الاختيار بين اطاعة مشيئته او معصيتها.

هذه العلاقة بين الانسان والله تعالى، او بين النسبي والمطلق، اساسية في كل دين. انما يركز كل دين على ناحية معينة من هذه العلاقة بينما يحتوي ضمنا على الحق المطلق في تعاليمه مهما كانت حدود مظاهره. ولذلك فان من يحيا دينا ما حياة كاملة انما هو يحيا الاديان جميعها. ولا شيء ابطل وافسد من محاولة دمج الاديان المختلفة ادعاءً للكلية والشمول، بينما يكون الانسان في الحقيقة يحطم المظاهر الموحى بها التي هي وحدها تمكن ربط النسبي بالمطلق، ربط الانسان بالله. فبدون «حكم السماء»، بدون الوحي ومعناه الكلي، لا امكانية لاي دين، ولا يمكن للانسان ان يتعلق بالله تعالى ما لم يمنح الله الانسان، بفضل رحمته، الوسائل التي تمكن الانسان من ذلك التعلق. ان كل دين اصيل هو صوت السماء، وهو يحتوي (عندما يكون بعد سليما) على العقيدة وعلى الطريقة اللتين «تخلصان» الانسان من حالته الدنيوية الحطيطة وتفتحان له ابواب السماء.

في مجابهة الانسان والله تعالى لا يؤكد الاسلام على نزول المطلق ولا على تجسده ولا على ظهوره، ولا على طبيعة الانسان الساقطة الخاطئة وغير الكاملة. بل ان الاسلام يتناول الانسان كما هو، في طبيعته الذاتية، ويعتبر الله تعالى كما هو، في حقيقته المطلقة. وتقوم النظرة الاسلامية على اعتبار الوجود الالهي كما هو في نفسه، لا كما هو في تجسده في التاريخ. فقد بنى الاسلام اساسه على المطلق وليس على «نزول المطلق». كذلك يعتبر الاسلام الانسان لا كما اصبح بعد ذلك الحدث المهم الذي تدعوه المسيحية «الخطيئة الاصلية» و «السقوط»، بل كما هو في طبيعته الاصلية في الفطرة، وهي طبيعة متأصلة في نفسه.

يمكن القول، بالطبع، ان كل دين، لا الاسلام وحده، مبني على الله تعالى وعلى علاقة الانسان به. ولكن هناك اديانا معينة تركز على تجسد معين لله او على ظواهر منوعة للمطلق. ففي المسيحية شخصية المسيح هي ما يشدد عليه بصورة خاصة، وهي الجوهر — بحيث اصبح من الطبيعي جدا ان ينسب الدين الذي اسسه المسيح اليه. الا ان الامر يختلف في الاسلام. ولذلك فان تسمية الاسلام بالمحمدية مضللة، مع ان هذه التسمية استعملت منذ وقت طويل في اللغات الاجنبية لدرجة يصعب معها ايقاف استعمالها بالمرة.

الاسلام دين لا يقوم على شخصية مؤسسه، بل على الله وحده. والنبي (ص) هو الوسيلة الذي تلقى الانسان بواسطته رسالة من لدن المطلق، رسالة تحتوي على عقيدة وطريقة. لذلك فالله تعالى هو حقيقة الدين. يختلف، اذاً، دور النبي في الاسلام عن دور المسيح في المسيحية اختلافا كبيرا مع وجود مشابهات بينهما بصفتيهما «رسولي الله». فلا

يؤكد الاسلام على كيفية ظهور الله عز وجل نفسه ، ولكن على طبيعة ذاته (طبيعته بالمعنى العام للكلمة وليس بالمعنى الفلسفي، اذ ان الله تعالى لاطبيعة له في الفلسفة الاسلامية). ولذلك يكون اكثر انسجاما مع النظرة الاسلامية ان نسمي الاسلام « اللهية » من ان ندعوه بالمحمدية ، ان لزم الامر .

اما الانسان فان الاسلام يشرّع له حسب طبيعته الحقيقية كما هو ، بناء على جميع امكاناته الفطرية في حالته البشرية . ولكن ما معنى « الانسان كما هو » ؟ الانسان ، اذا نظرنا اليه في حالته العادية ، كائن ضعيف وغافل . وهو ، عادة ، خاضع لمحيطه واسير لشهواته وهواجسه الحيوانية . انه لا يعي معنى انسانيته ولا يرتفع الى مستوى الامكانات الموجودة في طبيعته الانسانية . ولو لم يكن الامر كذلك لما كانت هناك حاجة لنزول دين او وحي لارشاده . لا ينظر الاسلام (بدون ان يتغاضى عن ضعف الطبيعة البشرية) الى الانسان في مجاله المحدود كارادة منحرفة ولكن ككائن موصوف بالصفات الالهية ، هو محور تجلي اسماء الله تعالى وصفاته اذ هو خليفة الله في الارض . في الانسان شيء من عالم الملكوت ، كما ورد في كتابه العزيز : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » (الحجر : ٢٩) ، وكما في الحديث الشريف : « خلق الله آدم على صورته ». ان الله تعالى خلق آدم، الانموذج الاول للانسان ، « على صورته » ، اي كمرآة تتجلى فيها اسماؤه وصفاته كلها . لذلك في الانسان شيء من الملكوتية. وعلى ضوء هذه الطبيعة الرفيعة في الانسان ينظر اليه الاسلام .

العقل والارادة والنطق

غير ان هذا الاعتقاد لا يشبّه الله تعالى بصفات بشرية باي حال من الاحوال ، اذ ان الذات تظل سامية مطلقة؛ وليس من دين شدد على ناحية تنزيه ذات البارىء من كل القيود اكثر مما فعل الاسلام . فالمفهوم الاسلامي لخلق الانسان على صورته لا ينسب الى الله تعالى صفات بشرية . انه لا يجعل من البارىء انسانا . بل ، على العكس ، ينظر الاسلام الى الانسان ككائن اصله ملكوتي ويخاطب ذلك الشيء في الانسان الذي هو من العالم الاعلى . وذلك الشيء ، بالدرجة الاولى ، عقل يستطيع ان يميز بين الصحيح والخطأ ، او بين الحقيقي والوهمي ، وهو بالطبيعة مقاد الى التوحيد. وهو، ثانيا ، ارادة حرة في الاختيار بين الصحيح والخطأ . وهو ، ثالثا ، قوة ناطقة ، للنطق بالكلمة للتعبير عن العلاقة بين الله تعالى والانسان . فالانسان ، في الاسلام ، ليس قبل كل شيء ارادة ضالة ذات عقل، وانما هو عقل يعمل على اثبات الله ، وهو ايضا ارادة ونطق .

ان العقل والارادة والنطق ، كلها ، صفات الهية في الاساس . فالله هو الذي يكمن العلم بين صفاته ، العلم الذي يرتبط بالعقل القدسي . و « العليم » من اسمائه الحسنى ، وهو

ايضا وحده الذي يملك الحرية المطلقة . ولما كان لا نهاية له ، فلا يوجد شيء خارجه يكون عقبة امام حريته . الله تعالى هو الذي لانهاية له ، والذي لا نهاية له مطلق الحرية . والكلمة ملك الله عز اسمه ، فهي منه وهي له واليه تعود. وهكذا فان صفات العلم والارادة والنطق صفات الهية اودعها الله الانسان ، وبواسطتها يعود الانسان اليه ثانية .

يأخذ الاسلام هذه العناصر الثلاثة ، العقل والارادة والكلام ، التي يمكن ان نقول ان الانسان « اقترضها » من الله تعالى ، ويجعلها اساس الدين ، منطلقا بها الى اسمى واوسع معانيها . ويسأل الاسلام : ما هو العقل وما هي طبيعته الحقيقية ؟ ان الطبيعة الحقيقية للعقل هي ادراك ان لا اله الا الله ، اي انها معرفة انه في النهاية لا توجد الا حقيقة مطلقة واحدة . انها ادراك طبيعة الله المطلقة ونسبية كل شيء آخر . واكثر من ذلك : ان هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يمكن للعقل ان يدركها بالمعنى المطلق . فهو يعرف كل شيء آخر معرفة نسبية . وهذا التأكيد هو الوحيد الذي يملكه الانسان بطبيعته . وهذه هي المعرفة الوحيدة التي يمكن للانسان ان يحصلها بيقين مطلق .

ما هي طبيعة الارادة ؟ انها القدرة على الاختيار ، الاختيار بحرية بين سبيلين : بين الحقيقي وغير الحقيقي ، بين الصحيح والباطل ، بين المطلق والنسبي . لو لم يكن الانسان حرا لما كان للدين من معنى صحيح. الارادة الحرة ضرورية للمفهوم الديني للانسان، ويصدق هذا الكلام على الاسلام مثلما يصدق على اي دين آخر. علينا الآن ان نوضح سوء فهم سيء حول الاسلام : اعني الاعتقاد بان الاسلام قدري حسب المفهوم العام الشائع للقدرية . والواقع ان المفهوم الشائع للاسلام في العالم الغربي يتمركز ، اكثر من اي شيء آخر، حول هذه القدرية المزعومة التي لا دور فيها للارادة الانسانية الحرة . ان حقيقة الامر هي شيء آخر . فلو كان الاسلام قدريا لما تمكن من فتح نصف العالم المعروف آنذاك في غضون سبعين سنة . ومن السخف ان ندعو احدى انشط الحضارات التي عرفها العالم وارجلها واجلها بالقدرية .

ما يؤكد عليه الاسلام هو الثقة الكاملة بالله تعالى ، والاتكال على مشيئته ، والادراك بان الله لوحده حر حرية مطلقة ، لانه هو وحده غير المحدود . ولكن الانسان ، بفضل طبيعته الالهية ، له حرية الارادة التي هي في مطلقها من صفات الله تعالى . فالله وحده حر، في المعنى المطلق ، لانه هو وحده الحقيقي اطلاقا. ولكن، من وجهة النظر البشرية، الانسان ايضا حر اذ هو حقيقي . بالطبع ان هذه المسألة من اعصى المسائل على الحل من زاوية نظر الاستدلال العقلي ، لان الفصل بين الارادة الحرة وحق التقرير هو اعلى من امكانات الفكر البشري المشتت ولا يمكن استيعابه الا بواسطة تلك الوثبة الاشراقية التي هي وحدها تستطيع ادراك «الجمع بين النقيضين». وللبحث فيها تاريخ طويل في اللاهوت

المسيحي واليهودي مثلما في تاريخ الكلام الاسلامي . الا ان ما يشدد عليه في الاسلام هو ان الحرية في مفهومها المطلق متعلقة بالله وحده . غير ان لنا نصيباً في هذه الحرية ولذلك نحمل مسؤولية الاختيار . ولو لم نكن مسؤولين لما كان هناك من معنى للايمان .

امـا النطق فانه المظهر الصريح لمـا نحن ننطوي عليه ، لوجودنا البـاطني . فنحن لا نستطيع ان نعبر عن وجودنا باي شكل آخر اكثر مباشرة من النطق . والنطق هو ، بمعنى ما ، الشكل الظاهري لما في باطننا . لذلك يجعله الاسلام محور عباداته . فالعبـادة الاساسية في الاسلام ، التي دعيت ركن الدين ، هي الصلاة اليومية التي تصهر حياةالانسان روحيا ، بتكرارها المستمر . بل ان الصلاة ، في حقل التصوف ، هي الطريق المؤدية بواسطة الذكر ، او ذكر الخفي او القلبي، الى الوصول الذي ينسجم مع ابقاء اهم حركات الحياة : اي نبض القلب. والذكر هو استطاعة تذكر الله تعالى بذكر اسمه دوما وبصورة ظاهرة باستخدام قوة النطق في الصلاة .

حاجة الانسان الى الوحي

منالطبيعي انه لا يوجد دين لا يقيم الصلاة بشكل او بآخر ، مثلما لا يوجد دين لا تقوم فيه الارادة ولا العقـل بأي دور . غير ان التوكيد في الاسلام ، الذي يدل على عبقريته الروحانية الخاصة ، هو انه جعل هذه العناصر الثلاثة (العقـل والارادة والنطق) اساسا للحياة المعنوية بواسطة التعمق في ذات هذه العناصر والكشف عن طبيعتهـا الاساسية . فيتساءل الاسلام السؤال الجوهري : « ما هو العقل وما معنى ان يكون الانسان عاقلا؟ » ليس العقل هو المعرفة المتعارف عليها في وقتنا الحاضر، اي فطنة فكرية ومهارة شيطانية تتلاعب بالافكار بدون حد وبدون ان تتعمق فيها او تتحقق منها . ان عقلا كهذا ليس العقل بالمعنى الحقيقي، العقل الذوقي الذي يختلف عن المهارة الفكرية اختلاف تحليقالنسر عن العاب القرد . فما ندعوه عقلا ، في هذه الايام ، انما هو بهلوانات سعدانية للعقل الذي يتلاعب بالافكار ، حتى وان كانت افكارا دينية ، دون ان يستطيع ان ينفذ الى اي منها ويفهمها . ان عقلا كهذا لهو كبحيرة تجمدت ، ولا شيء يستطيع النفوذ فيها من على سطحها، بل ينزلق كل شيء عليها من جانب الى آخر دون ان يمس ما تحت السطح.والعقل في الاسلام ليس هذا النوع من النشاط العقلي الذي لا يتعدى ، في احسن احواله ، ان يكون مجرد انعكاس للعقل الحقيقي .

ليس هنا مجـال تحليل كلمة « العقل » التي تربط الانسان بالله عز اسمه ، الى جانب معناها العادي . والواقع ان « الربط » هو احد معاني جذر فعل « العقل » . فالقرآن الكريم يدعو اولئك الذين ضلوا عن الدين : الذين لا « يعقلون » . مهم جدا ان يكون فقدان الايمـان مساويا ، في اللغة القرآنية ، ليس لفساد الارادة وانمـا لعدم فعل العقـل

فعله الصحيح .

يكمن هنا احد الفروقات الرئيسية بين نظرتي الاسلام والمسيحية ، وهو فرق يجعل من الصعب على كثير من الغربيين ان يفهموا طبيعة النظرة الاسلامية . فالمسيحية ، في الاساس ، هي سر يحيط بالله ويحجبه عن الانسان . ويكمن جمال المسيحية في قبول الله كسرّ وفي الخضوع لهذا السر ، في الايمان بالمجهول كما قال القديس اوغسطين . اما في الاسلام فان الانسان هو المحجوب عن الله تعالى . لا حجاب يحيط بالله بالنسبة لنا ، بل نحن محاطون بحجاب ، وعلينا نحن ان نسعى لازالة هذا الحجاب حتى نعرف الله عز وجل. وعقلنا ليس جهازا شيطانيا ولكنه اداة موهوبة من الله غايتها علم البارىء تعالى. وهكذا فان الاسلام نفسه هو ، بالاساس ، طريق للمعرفة . انه يقوم على المعرفة — التي لا يمكن مساواتها بالاستدلالية باي حال من الاحوال (والاستدلالية مجرد شكل ثانوي وغير مباشر للمعرفة) . بل يقود الاسلام الى المعرفة الاساسية — التي تصهر وجودنا والتي تمكننا من معرفة ما نحن ، ومن ان نكون ما نعرف ، اي المعرفة التي تتوحد مع الوجود في المشاهدة النهائية الموحدة للحقيقة .

قد يثار هذا السؤال الآن : لماذا اذاً يحتاج الانسان الى الوحي ما دام قد خلق « على صورته » مزودا بعقل يمكنه من معرفة الله تعالى وتأكيد التوحيد ؟ انها مسألة تحتاج الى شرح طويل خاصة لان عددا من الاعتذاريين المسلمين ، ممن ارادوا الرد على الاتهامات المسيحية ضد الاسلام وكانوا في الوقت نفسه غير اقوياء عقليا لعرض وجهة النظر الاسلامية الصحيحة ، زعموا ان الاسلام لا يحتاج الى اسرار ومعجزات وخطيئة اصلية وكل ما هو « خارق » من وجهة النظر المسيحية . يصوّر الاسلام وكأن مفهومه للانسان هو الانسان الديكارتي العقلاني المتروك لحكم عقله الذي ، بدل ان يصبح منكرا للوحي او ملحدا كما في الغرب ، اصبح مسلما . الا ان هذا الرأي غير صحيح بالمرة . فانه مع ان الاسلام يقوم على الفطرة الاصلية للانسان وعقله اكثر من الارادة التي انحرفت بعد سقوطه على الارض ، فانه يؤمن في الوقت نفسه بان الوحي ضروري كل الضرورة . فبدون عون الله تعالى لا يستطيع الانسان ان يستهدي بنفسه على طريق الخلاص ، على « الصراط المستقيم » .

يحتاج الانسان الى وحي لانه بالرغم من انه خلق « على صورته » فهو ، بطبيعته ، يغفل وينسى ؛ انه ، كما هو ، غير كامل . لذلك يحتاج لمن يذكّره . كان آدم ، الانسان الاول ، اول الانبياء . وهكذا فان النبوّة لازمة للبشرية وتبدأ منذ الانسان الاول نفسه. ومثلما احتاج آدم الى نبوة يحتاج اليها ايضا كل ذريته . فلا يستطيع الانسان ان يسمو بنفسه روحيا . ويجب ان يوقظه من حلم الغفلة من هو متيقظ من قبل . وهكذا يحتاج الانسان الى وحي من السماء ، ويجب ان يتبع وحيا حتى يعلم امكانات وجوده الكاملة وحتى

يتغلب على العقبات التي تعترض اداء عقله لواجباته الصحيحة . ان العقل يقود الى الله عز وجل ما دام العقل سليما ؛ والوحي ، هذا المظهر العيني للعقل الكلي ، هو الذي يؤمن سلامة العقل ويسمح له بالعمل عملا صحيحا بدون ان يتأثر بالشهوات . ولا يستطيع الانسان ان يرفع نفسه روحيا من تلقاء نفسه . بل على كل انسان ان يتبع نبيا ووحيا ،ما لم يكن هو نفسه قد اصطفي نبيا – او في حالات اخرى قليلة وشاذة ، حالات تثبت القاعدة وتبرهن على ان « الريح تهب حيث تشاء » .

ان السبب الاعظم للحاجة الى وحي هو وجود عقبات امام العقل تمنعه عن اداء واجباته اداء صحيحا؛ او هو، بشكل مباشر اكثر ، ان الانسان بالرغم من انه موصوف بالصفات الملكوتية فهو دوما ينسى ويغفل . ان في الانسان امكان ان يكون مظهر صفات الله عز وجل ، ولكنه دائماً في حالة اغفال لهذه الامكانية. انه دائماً في حالة نسيان . لذلك كانت المعصية الكبرى في الاسلام هي النسيان؛ والغفلة عما نحن عليه بالفعل، والاسترسال في النوم والاحلام الذي ينسينا حقيقتنا وما يجب ان نفعله في هذا العالم . والوحي هو ايقاظ الانسان من هذا الحلم وتذكيره بما يجب ان يكون عليه الانسان .

المفهوم الاسلامي للانسان

لا يكون الانسان انسانا بمجرد ان تكون له يدان يعمل بهما او بمجرد ان يصنع طائرات تحلق في السماء وادوات حساب تؤدي العمليات الرياضية الصعبة بوقت قصير . ان القدرة على هذه الامور و امثالها ليست باكثر من عرضية في طبيعته الحقيقية التي تجعل منه رجلا لاهداف اخرى .

في آخر « رسائل » اخوان الصفا قصة تحتوي على حوار بين الانسان والحيوانات . يشكو اعضاء مملكة الحيوان لملك الجن من قسوة الانسان ومن انه يحمّلهم الاثقال ويشرب حليبهم ويأكل لحومهم ويستغلهم في طرق اخرى ليحقق حاجاته بدون اعتبار لحقوقهم . ويدعى الانسان للرد على هذه الاتهامات . فيحاول ان يثبت تفوقه بذكر قدرته على بناء المدن والمباني وعلى اجراء الحسابات وخلق كيان اجتماعي معقد وتطوير العلوم والفنون وامور اخرى من هذا النوع . ويجيب احد افراد المملكة الحيوانية على كل هذه الادعاءات بان يعدّد ، مقابل كل مهارة للانسان ، مهارة يقوم بها احد افراد المملكة – كالنحلة : فهي مهندس بالفطرة تبني خليّتها على شكل مسدسات. وهكذا تغلبت الحيوانات على كل مؤهلة ادعاها الانسان لنفسه وظن ان له الحق بذلك في السيطرة على الطبيعة وتدميرها ، مثلما فعل في القرن الماضي بضراوة لا مثيل لها. ولكن عندما يذكر الانسان ان في المجتمع الانساني اولياء، هم خلفاء الله تعالى في الارض ووسيلة رحمته ولطفه في الكون كله ويحققون

غاية وجود حياة المخلوقات ، آنذاك فقط تنحني الحيوانات امام دعوى الانسان بحقه في السيطرة عليها . ان مقام الانسان المركزي في العالم ليس بسبب مهارته او ذكائه واختراعاته ، ولكن بسبب قدرته على السير في عالم المعنى وعلى ان يصبح وسيلة الرحمة للعالم .

تصور هذه القصة المفهوم الاسلامي للانسان ، وبحسب ذلك المفهوم يشترك الانسان في الحالة الانسانية اشتراكا كاملا لا بفضل النشاطات التي ينخرط فيها عادة ولكن بفضل تذكره انه خليفة الله في الارض . ولانه في خطر نسيان هذه الطبيعة دائما ، فانه يحتاج دائما الى الوحي . اما الانسان في المسيحية فقد ارتكب الخطيئة ، وبما انه ارتكب الخطيئة ضلت طبيعته ، وبما انه ضل اصبح بحاجة الى معجزة لخلاصه . بالمعمودية والعشاء الرباني يندمل هذا الجرح في روحه ، وبالاشتراك في حياة المسيح وفديته يخلص. الا انه لاخطيئة اصلية في الاسلام . ولا يوجد فعل واحد اضلّ الارادة البشرية وافسدها . انما البشر غير كاملين لمجرد انهم بشر ؛ فلا كمال الا لله عز وجل . ولما كان الانسان غير كامل فانه ينقاد الى النسيان ، ولذلك فهو محتاج ابدا للتذكير بواسطة الوحي. لذلك فمع ان نقطتي الانطلاق في المفهومين المسيحي والاسلامي للانسان مختلفتان الا ان النتيجة واحدة ، من ناحية ان كلا منهما يؤمن بضرورة الوحي لخلاص الانسان .

الانسان في حاجة مطلقة للدين ، لانه بدونه هو انسان عرضيا وحسب. وانما بالاشتراك في الدين ، في طريقة حياة وتفكير ووجود ديني ، يصبح الانسان انسانا بالفعل ويستطيع ان يجد للحياة معنى . والدين بهذا المعنى هو وحده يعطي الوجود الانساني معنى . لم يدرك الكثيرون من المفكرين في عصور اليقظة والعقلانية ، ممن عارضوا الدين ، حاجة الانسان العميقة للدين ، ولم يروا ان الانسان اذا حرم من الدين الموحى به من السماء فانه ، بدل ان يشعر بالقناعة والكفاية ، سيبدأ يخلق مجموعات من المعتقدات شبه الدينية ، الخطرة روحيا ، التي انهمرت على البشرية في القرن او القرنين الاخيرين .

ان امتياز الاشتراك في الحالة الانسانية ، في حالة تضمن فرصة وامكانية الوصول للحق والسمو على عالم الطبيعة والحصول على الروح الخالدة التي تكمن حقيقتها خارج العالم المادي ، يحمل معه مسؤولية جسيمة . يعبر القرآن الكريم تعبيرا عميقا عن مسؤولية قبول الايمان او رفضه : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (الاحزاب : ٧٢) . هكذا كان حمل مسؤولية الحالة الانسانية كبيرا حتى ان السماء والجبال رفضتا حملها ، وعلى كتفي الانسان وضع هذا الحمل الثقيل . وكما قال حافظ مرددا صدى الآية القرآنية المباركة :

« كانت السماء اضعف من ان تحمل

حمل محبة الله الذي وضعه عليها .
فالتفت الله يبحث عن رسول آخر
وفي كتاب القدر كُتب اسمي » .

ان عظمة المقام الانساني انما هي في ان للانسان امكانية الوصول اما الى مرتبة «اعلى من الملائكة » او الى الالحاد، كما قال كثير من الصوفية كالشيخ الاكبر محي الدين بن عربي. فمع ان للانسان امكان صيرورته مظهرا لصفات البارىء تعالى بواسطة تقبل امانة الايمان ،فانه يقدر ايضا ان يثور ويلعب دور اله صغير كما عصى ابليس اللعين مشيئة الله تعالى . وهنا تكمن عظمة المقام الانساني وجديتها . فكل كائن في العالم هو ما هو ، وله مرتبة معينة من الوجود . والانسان وحده يستطيع ان يخرج عن البقاء كانسان ، يستطيع ان يرقى الى ما فوق كل درجات الوجود العالمي او ان يسقط الى ما دون مرتبة اوحش الحيوانات. والجنة وجهنم ، المعروضتان كبديلين امام الانسان ، هما بحد ذاتهما علامة على خطورة المقام الانساني . فيعطى الانسان فرصة فريدة بأن يولد انسانا ، وانها لمأساة ان يضل ويصرف حياته في ملاحقة امور تلهيه عن الهدف النهائي لحياته ، وهو نجاة روحه الخالدة.

الرمز الاعلى لهذه الامانة ، هذا الحمل الغالي الذي وضعه الله تعالى على كاهل الانسان (وهو حمل ان حافظ عليه حصل على نعيم ابدي)، هو في الاسلام الحجر الاسود في الكعبة . ففي بيت الله الحرام في مكة المكرمة حجر اسود هو في الحقيقة نيزك سقط ، حسب الرواية الاسلامية ، من السماء ، يرمز الى الميثاق الاصلي القائم بين الانسان والله عز وجل . علّم الله الانسان اسماء كل المخلوقات ، كما يروي القرآن الكريم مثلما يرويه العهد القديم . يعني هذا ان الله اعطى الانسان مقدرة السيطرة على كل الاشياء ، لان امتلاك « اسم » شيء ما انما هو في الواقع ممارسة سلطة عليه . فللانسان الحق في تنشق الهواء المحيط به ، والاكل والشرب لسدّ حاجات جسده ، والسير على الارض . لم يخلق الانسان نفسه ايا من هذه الاشياء . واعطي الانسان ، فوق هذا ، حياة وحرية لقبول او انكار الخالق نفسه . ان هذا الامر بحد ذاته ، « معجزة » : الوجود الجزئي يستطيع ان ينكر الوجود الكلي . نحن موجودون ، ومع هذا يوجد بعض اناس ينكرون الخالق مصدر كل وجود . البشر وحدهم يستطيعون ان يصبحوا « وجوديين » ، بالمعنى الحديث في الفلسفة الاوربية . الحيوانات موجودة ولكنها ليست « وجودية » .

انها لمعجزة ان يعطى الوجود الانساني امكان انكار اصله . ومع هذا اعطي الانسان كل هذا واعطي الكثير ايضا مقابل شيء يريده الله تعالى منه ، والحجر الاسود رمز لهذا الميثاق بين الانسان والبارىء تعالى . وفكرة الميثاق امر في الدين كثيرا ما ينسى فيزماننا الحاضر ، ولكنه اساسي في الاسلام وقد شُدد عليه كثيرا في العهد القديم . الا انه عقد في

العهد القديم بين الله و « شعب مختار » ، بينما عقد في الاسلام بين الله عز اسمه والانسان كانسان ، وليس مع عنصر او جماعة معينة .

ثلاثة معان لكلمة مسلم

اصبح على الانسان ، بعد ان تقبل الميثاق ، واجبات معينة . فعليه ، قبل كل شيء ، ان يوفق بين عقله والحقيقة التي تأتي من المطلق ، ثم ان يوفق بين ارادته وارادة المطلق ، وان يوفق بين كلامه وما يريده الله من الانسان . وباختصار ، على الانسان ، مقابل جميع البركات والهبات التي منحها الله له ، ان يتذكر بدوره طبيعته الحقيقية ، وان يحافظ على الهدف الحقيقي لرحلته في هذه الحياة الدنيا . عليه ان يعرف من هو والى اين يسير . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك الا اذا اخضع عقله للحقيقة وارادته للشريعة . فالانسان الذي لا يقوم بفروضه الدينية يسقط في اعين المسلمين على ابسط صعيد اخلاقي . انه كرجل استأجر بيتا ورفض دفع الاجرة . فقد عقد الانسان ميثاقا مع الله عز وجل ولكنه اخل بواجباته حسب العقل .

يثير قبول الميثاق السماوي مسألة العيش حسب ارادة البارىء تعالى . ان اسم الاسلام نفسه يرتبط بهذه الفكرة الجوهرية . فلجذر « سلم » معنيان : سلام وتسليم . ان الذي يستسلم لارادة الله يحصل على السلام . والنظرة الاساسية في الاسلام هي انه على الانسان ان يستسلم لارادة المطلق ، بواسطة استعمال عقله الذي يميز بين المطلق والنسبي . هذا هو معنى المسلم : من قبل ، طوعا ، ان يكيف ارادته حسب ارادة الله عز وجل .

الاسلام ، بمعنى خاص ، هو الدين الذي اوحى به القرآن الكريم ، اما بالمعنى العام فهو الدين عموما ايضا . والواقع ان بعض حكماء الاسلام يرون ثلاثة معانٍ لكلمة « مسلم » . فالاسلام مثل جبل متعدد القمم ولكل جانب فيه درجات مختلفة من المعنى ، بما فيه معنى كلمة مسلم . اولا ، من يقبل وحيا فهو مسلم بالمعنى الكلي الاوسع ، سواء كان مسلما او مسيحيا او يهوديا او من سائر اهل الكتاب . الاسلام في معناه الاول ، اذاً ، هو نعت لمن يقبل شريعة الهية بفضل عقله وارادته الحرة .

ثانيا ، تشمل لفظة « مسلم » جميع المخلوقات في الكون الذين يقبلون الشريعة بمعنى انهم يقبلون القوانين التي يدعوها العالم الغربي « قوانين الطبيعة » التي لا تقهر . لقد عمل كل من تلاحم العالم الطبيعي المنطقي جدا ، ونظامه ، ونظاميته ، على تحويل اناس كثيرين في زماننا الحاضر عن المفهوم الديني للطبيعة ، كأن حضور الله تعالى في عالم الطبيعة لا يعبر عنه الا في « المخارق » . كانت حقيقة شروق الشمس بانتظام كل صباح وعدم رؤية اي خلل في النظام الطبيعي حجة رئيسية استعملها عقلانيو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،

والعقلانيون المعاصرون ايضا ، ضد المفهوم المسيحي للعالم . لكن هذه النظامية تثبت العكس في اعين المسلمين : تثبت وجود الارادة الالهية التي يخضع لها جميع المخلوقات الذين لا خيار لهم ولا بد لهم ، باستثناء الانسان ، من الخضوع . فلا خيار للحجر الا ان يقع . ان قوة الجاذبية تعبير عن الارادة الالهية في العالم الطبيعي ، التي يطيعها الحجر اطاعة مطلقة ، فهو بذلك « مسلم ». انها ارادة الخالق التي تعلن عن نفسها في ما يدعى في الفكر الغربي « بقوانين الطبيعة » ، وكل شيء في الكون مسلم بمعناه العميق ، باستثناء الانسان الذي يستطيع ان يرفض الخضوع للارادة الالهية بما وهب من اختيار كأمانة عليه ان يحملها . فالشجرة تنمو ولا طوع لها الا النمو ؛ تشتعل النار ولا تستطيع ان تفعل عكس ذلك ؛ وعلى شجرة الاجاص ان تحمل اجاصا ؛ وعلى النمر ان يكون نمرا دائما ؛ وعلى النسر ان يكون نسرا . والحيوان النبيل نبيل دائما ، والحيوان الوضيع وضيع دائما . اما الانسان فهو المخلوق الوحيد الذي يستطيع ان يكون ضاريا كالنمر ، مهيبا كالاسد او كالنسر ، او وضيعا كدودة الارض . الانسان وحده يستطيع الا يظل مسلما بهذا المعنى الثاني للكلمة ، بينما كل المخلوقات الاخرى مسلمة بهذا المعنى بسبب استسلامها الكامل للمشيئة الالهية التي تعبر عن نفسها بقوانين الطبيعة .

واخيرا ، هناك المعنى الاعلى لكلمة « مسلم » ، الذي ينطبق على اولياء الله . الولي مثل الطبيعة يعيش كل لحظة من لحظات حياته وفق ارادة الله تعالى . غير ان خضوعه لهذه الارادة خضوع فعال واعٍ بينما خضوع الطبيعة خضوع منفعل . كل الموجودات تعلم انها موجودة ، بمعنى ما ، لكن الانسان وحده يعلم انه يعلم ، ولديه معرفة واعية لوجوده . ربما كان اكثر منطقيا ان ننظر الى المعنى الاول للمسلم كتسمية للطبيعة ، والى المعنى الثاني كتسمية للانسان الذي آمن بدين ما ، والى المعنى الثالث كتسمية للولي الذي لم يؤمن بالدين فحسب بل عاش حياته حسب ارادة الله . على هذا الاساس الولي هو العنصر المقابل ، الواعي والفعال والعقلاني ، للصنف الاول من « المسلم »، اي الطبيعة . انه، مثل الطبيعة، يعيش كل لحظة من لحظات حياته حسب مشيئة الله ، انما بوعي وبارادة حرة . ولذلك فهو يحافظ على الطبيعة ، وهو صنوها الروحاني .

الاسلام ، اذاً ، مفهوم كلي يشمل الانسان والكون حوله ويكمن في طبيعة الاشياء . وهو ، ايضا وبشكل ادق ، كدين اوحي به قبل اربعة عشر قرنا ، يستمر في بناء نفسه على ما هو في طبيعة الاشياء ، منصبا بوجه خاص على الطبيعة الالهية نفسها . لهذا السبب يقوم الاسلام ، من اوله الى آخره ، على فكرة التوحيد لان الله تعالى واحد. فالتوحيد هو الاول والآخر في الاسلام . ويبلغ التشديد عليه درجة يظن غير المسلم انها حشو وترديد زائد لامر واضح . ولكن فكرة التوحيد عند المسلم ليست مجرد تأكيد على وجود رب

واحد في السماء بدل اثنين او ثلاثة . فما من دين كان يقدر ان يكسب ربع البشرية وينتشر من المغرب الى اندونيسيا بفضل فكرة بسيطة كهذه . ان مفهوما كهذا لا يكفي لاستمالة الناس نحو الدين .

التوحيد هو ، بالاضافة الى كونه تأكيدا حكميا على طبيعة المطلق ، طريقة في الانصهار ، ووسيلة للتكميل ولادراك وحدة الوجود كله . وتدور كل ناحية في الاسلام حول عقيدة التوحيد التي يسعى الاسلام لتحقيقها اولا في الانسان ، في حياته الباطنية والظاهرية . وعلى كل مظهر من مظاهر الوجود الانساني ان يتصل اتصالا وثيقا بالشهادة بان لا اله الا الله ، وهي الطريقة الاعم في اعلان التوحيد . يعني هذا ان على الانسان الا يتجزأ في تفكيره ولا في اعماله . وعلى كل عمل ، حتى في السير او الاكل ، ان يعلن عن اصل روحي موجود في عقله وقلبه .

لا تمييز بين الروحي والزمني

يعبر التوحيد عن نفسه ، على الصعيد الاجتماعي ، بوحدة المجتمع البشري التي حققها الاسلام الى درجة بعيدة . اما سياسيا فيعبر التوحيد عن نفسه بوحدة الجماعة الاسلامية ، او الامة ، كهدف نهائي للهيئة السياسية . فهناك مجتمع اسلامي واحد ، فقط ، مهما ابتعد افراده بعضهم عن بعض . والامة الكاملة وحدها هي التي تشكل الحلقة التي هي الاسلام ، وليس لاي جزء من الجماعة الاسلامية الحق بأن يدعي بأنه الامة ، اكثر مما لاي جزء من حلقة الحق بأن يزعم الدائرية . ويقوم الشوق السياسي لحكومة اسلامية واحدة ، رغم كل ما تعرضت له هذه الفكرة في حياتها من هزات وانتفاضات في التاريخ ، على عقيدة التوحيد الحكمية الرئيسية .

ويعبر التوحيد عن نفسه ايضا في عالم الفنون والعلوم ، ذلك العالم الذي لا يستطيع الاسلام ان يبقى حياديا فيه تجاه اي شكل من اشكال المعرفة . لقد سعى الاسلام دائما الى توحيد كل نواحي المعرفة ، ولذلك جابه مشكلة صعبة جدا بشكل خاص : مشكلة مواجهة الاكتشافات العلمية ومفترضات العلم الحديث ، وهي مهمة لا يحلها ابدا مجرد القول ان الاسلام « علمي » كما يفعل كثير من المسلمين الاعتذاريين . فالمشكلة اعمق من ذلك واعقد ، وعلى الاسلام ان يجابه التحديات نفسها التي جابهتها المسيحية منذ القرن السابع عشر . واكثر من ذلك ، لما كان الاسلام طريقة للمعرفة كان عليه اما ان يرد على اي شكل آخر للعلم يدعي معرفة الاشياء او ان يقبل به . وعلى اي حال ، ان وظيفته الاولى ان يصهر ، وقد دل تاريخ الاسلام على هذه الناحية في الفلسفة والعلم كما في الفن حيث وضحت ووسّعت الصور لاظهار الوحدة المنطوى عليها ولم يحصل تميز بين علم وفن ديني وغير ديني .

والواقع ان الاسلام ، دين التوحيد ، لم يميز قط بين الروحي والزمني ، بين الديني والدنيوي ، في اي حقل من الحقول. ومجرد عدم وجود كلمة مناسبة «للزمني» او «العلماني» في العربية ولا في الفارسية ولا في اية لغة اسلامية اخرى لهو افضل دليل على ان هذه المعاني لم تكن موجودة في الاسلام . ان مثل هذه التجزئة غير حاصلة ، لان « مملكة قيصر » لم تعطَ لقيصر في الاسلام ابدا . فالاسلام المبني على التوحيد طريقة شاملة للحياة لا تستثني امرا قط . وتشريعه واقعي تماما لانسجامه مع نظرته المبنية على طبيعة الاشياء كما هي . لذلك فهو لا يقصر احكامه على الاولياء بل يتناول ايضا الانسان العادي بكل حسناته وعيوبه . ولهذا السبب عينه اتهم كثير من المسيحيين الاسلام اتهامات باطلة ، بأنه دنيوي او بأنه ديانة السيف .

هذا الاتهام الاخير مهم ، وعلينا ان نتوقف عنده قليلا للاجابة عليه . صحيح ان في الاسلام تشريعا لكل شيء حتى للحرب ، بينما تأمر المسيحية الانسان ان يدير خدّه الآخر وتأمر بالرفق في تعاليمها . ولكننا ننسى ان الدين اما ان يكون للقديسين ، كما قال المسيح : « مملكتي ليست من هذا العالم » ، بحيث يترك المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية جانبا ويفكر باتباعه كأنهم ينطوون جميعا على امكانية القداسة ، وبالتالي فهو ، كدين ، لا يعمل الا في مجتمع قديسين ؛ واما ان يحاول الدين ان يحيط بجميع جوانب حياة الانسان ، وعليه عند ذاك ان يأخذ طبيعة الانسان ، بكل ضعفها وتقصيرها ، بعين الاعتبار ، وان يشرّع للحياة الاقتصادية والاجتماعية للانسان مثلما يشرّع للنواحي الدينية الصرف في وجوده . والمسيحية بالطبع ، في مخاطبتها الناس كأنهم ينطوون على امكانية القداسة ، لم تستأصل الناحية غير القدسية في اتباعها ، ولا ابادت الحرب في العالم المسيحي .

والواقع انه في اللحظة التي اصبحت المسيحية فيها دين حضارة وامبراطورية ، اضطرت الى ان تستلّ السيف وتحارب به لتصمد . وكان عليها ان تختار بين البقاء دينا للرهبان او ان تصبح دينا للمدنية التي حملت معها مسؤولية الحكم والقتال . ولا شك ان ملوكا كشارلمان والقديس لويس حاربوا بنفس الشدة التي حارب بها اي من الملوك المسلمين. واقل ما يقال في المقاتلين المسيحيين انهم لم يكونوا الطف ولا اكرم من المقاتلين المسلمين في ساحات القتال . لقد تبادل الاسلام والمسيحية اسبانيا وآسيا الصغرى في عصر واحد تقريبا: فقُتل جميع المسلمين في اسبانيا او طردوا منها فلم يبق فيها مسلم اليوم ، بينما بقيت كرسي الكنيسة الارثوذكسية في تركيا الى اليوم هذا .

لذلك فالانتقاد الموجه للاسلام بأنه دين السيف ليس صحيحا . فالاسلام بتشريعه الحرب وضع حدا لها ، بينما تركتها المسيحية خارج نطاق اعتبارها . ولم يكن من الصدف

ان الحروب العالمية في هذا العصر بدأت في الغرب حيث للمسيحية النفوذ الديني السائد . اعتاد العلمانيون ان يقولوا ان الحروب التي اشتعلت بين المسلمين والمسيحيين كانت بسبب الدين ، وان الدين هو سبب الحرب . لقد جهلوا ان العالم العلماني المعاصر يقتل في حروبه اكثر مما قتلت الحروب الدينية. ان الحرب ، بشكل محدود على الاقل، انما هي في الواقع في طبيعة الاشياء . لذلك بدل ان يتركها الاسلام جانبا كأنها لم تكن موجودة ، حددهـا بأن تقبلها ووضع لها تشريعات دينية . ويستطيع الانسان ان يقول على الاقل ان حروب هذا القرن الرهيبة لم تنبعث من العالم الاسلامي، بل من الغرب العلماني. لا نقول ان المسيحية مسؤولة عن ذلك ، لان الحروب انما انبثقت عن مجتمع ثائر ضد المسيحية من عدة نواحٍ . لكن المسيحية ، لانها لم تكن ذات شريعة لحياة الانسان الظاهرية مثل حياته الباطنية ، سهلت علمنة الحياة السياسية والاقتصادية وانفصالها عن المبادىء السماوية مما ادى، بدوره، الى قيام الانقلابات الرئيسية في زماننا الحاضر .

لا نقصد بهذا انتقاد المسيحية ابدا . قصدنا ان ندفع عن الاسلام هذه التهمة المضللة التي يتهمه بها غربيون كثيرون ، وخاصة ممن يحبون ان يحافظوا على طريقة في الحياة فارغة وعادية مهما كان الثمن ، وممن يؤمنون ان دور الدين يقتصر على الحفاظ على السلام ليتمكنوا بذلك من الاستمرار في نمط حياتهم — بحيث يصبح اي دين يعنى ايضا بالجهاد والحرب زائفا. والحقيقة ان الدين الذي يسعى للاحاطة بسائر جوانب الحياة يجب ان يراعي جميع حقائقها. فللحياة ، مثل الطبيعة ، جوانب متعددة؛ وفيها، مثل الطبيعة ، بحيرات وازهار وحقول هادئة تنعم بالسلام ، وفيها رعد وبرق يحملان القوة والرعب .

الدين الحنيف وخاتمة الاديان

الوحي بالرسالة الدينية هو في الواقع فتح ابواب السماء امام القبول البشري. وهو اما ان ينزل كبرق ويترك اثره بسرعة، او ان يجري كالماء وينساب ببطء. وفي الحالتين يزول ما كان موجودا من قبل وتحل محله خليقة جديدة. لقد سقطت الامبراطورية الرومانية بصدمة عنيفة عنف سقوط الامبراطورية الايرانية . قهرت المسيحية اولاهما روحيا، وقهر الاسلام ثانيتهما روحيا . ولم تعنَ المسيحية ، المشغولة بحياة الانسان الروحية ، بحـاجاته السياسية والاجتماعية . اما الاسلام الذي بنى نفسه على التوحيد فكان عليه ان يعنى بحيـاة الانسان كلها ، ولم يكن بامكانه تجاهل اي جانب منها . ولا يقدر ان ينتقد هذه الواقعية العميقة في الاسلام الا مثالية مزيفة ؛ هذه الواقعية ، التي بدلا من ان تتخيل الناس كلهم كقديسين ابرار ثم تتحمل مشقة مواجهة الكثيرين منهم البعيدين عن حياة البر ، اقامت نفسهـا على الطبيعة الحقيقية للانسان في حياته الروحية والدنيوية التي تسعى نحو هدف روحي بواسطة

جمع كل الاشياء في منهاج قائم على التوحيد .

ترتبط خاصية الاسلام هذه ارتباطا مباشرا بواقع كون الاسلام « الدين الحنيف » وخاتمة الاديان في الحياة الحاضرة للبشرية . ويعتبر الاسلام نفسه الدين الحنيف لانه تأسس على مبدأ التوحيد الموجود منذ البدء والكامن في حقيقة الاشياء . فقد قام كل دين على مبدأ التوحيد كغاية نهائية، لذلك قال الاسلام ان « التوحيد واحد »: فلا يوجد الا مبدأ واحد للتوحيد شددت عليه كل ديانة ، وما جاء الاسلام الا ليؤكد من جديد ما كان موجودا من قبل وليعود بذلك الى الدين الحنيف، الذي كان في البدء وسيظل الى الابد ، الى « الحكمة الخالدة » . سعى الاسلام الى تحقيق ذلك بتأكيده الحاسم على التوحيد الالهي وبمحاولته ارجاع الانسان الى فطرته المحجوبة عنه بسبب احلام غفلته . وحسب التعاليم الاسلامية لم يرسل الله تعالى مع رسله حقائق مختلفة بل ارسل تعبيرات واشكالا مختلفة لحقيقة التوحيد الاساسية الواحدة . اي ان الاسلام تأكيد جديد ونهائي على الحقيقة الحنفية ، مشددا عليها في قالب المذهب الابراهيمي في جو الروحانية الساميّة ، متخذا من العناصر الثلاثة، العقل والارادة والمنطق ، اساسا له ليجعل تحقيق التوحيد ممكنا .

المسيح في الاسلام

في الاسلام ثلاث شخصيات متشابهة: آدم وابراهيم والنبي محمد. بدأ الدين الحنيف القائم على التوحيد بآدم نفسه ، الذي كان موحدا منذ البدء . ولم تتطور البشرية بالتدريج من الشرك الى التوحيد . بل ، على العكس ، انحرف الانسان من وقت لآخر من التوحيد الاصلي الى الشرك بسبب انحطاط الانسان. كان الانسان موحدا في الاصل ثم سقط بالتدريج الى الشرك، وعليه ان يذكّر من حين الى آخر بمبدأ التوحيد الاصلي . والتاريخ عبارة عن سلسلة من ادوار الانحلال والتجدد . يأتي الانحلال عن مؤثرات مفسدة في المحيط الدنيوي، عن الارض التي تشد الاشياء الى الاسفل وتحط القوى الروحية بابتعادها تدريجيا عن مصدرها الاول . ويأتي التجدد من السماء بواسطة الانبياء الذين يجددون، عن طريق الوحي المتعاقب ، حياة الانسان الروحية والدينية . فمفهوم التاريخ في الاسلام انه مجموعة من ادوار النبوة ، تتلو كل واحد منها مرحلة انحلال متدرجة تؤدي الى دائرة نبوة جديدة .

ومثلما كان آدم اول انسان ونبي وبدء التاريخ الانساني، كذلك يمثل ابراهيم التأكيد على هذا الدور للامة الساميّة . انه يرمز الى وحدة ذلك الدين الذي استقت منه اليهودية والمسيحية والاسلام ، افراد « الاسرة الابراهيمية » . وهو يمثل في الاسلام ذلك الدين الحنيف الذي جاء الاسلام ليدعو له من جديد ، اذ هو ابو التوحيد وابو الساميين . وعمل موسى ، في اول دين منفصل ينشأ عن الدين الابراهيمي ، على حصر هذه الدعوة العالمية في « شعب مختار » . والواقع ان الوحي الذي نزل على موسى كان جوهر هذا التعليم ، اي

الدين ، الحنيف كشريعة ، فجاءت اليهودية للتأكيد على أهمية اتباع الشرع الالهي ، «ناموس التلمود » ، كاساس للدين . واعلنت اليهودية ارادة الله بشكل ناموس متجسد ، على الناس ان يتقيدوا به في حياتهم اليومية .

اما المسيح والمسيحية فيمثلان ، من الجهة الاخرى ، الناحية الباطنية في الدين الابراهيمي ، الناحية الباطنية في الدين الحنيف ، وهي طريقة روحية اكثر منها شريعة . فلم يأتِ المسيح بشريعة ، بل اتى بطريقة تقوم على محبة الله عز وجل . واعترف الاسلام بالدور الخاص للمسيح ، الذي يختلف عن ادوار الانبياء الآخرين الذين كانوا يأتون عادة بشرائع او عدلوا شرائع سابقة : اعترف الاسلام بدوره هذا عن طريق الاعتراف بطبيعته الخاصة ، « كروح الله » ، وولادته غير الطبيعية من العذراء مريم : « والتي حصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » (الانبياء : ٩١) ، و : « فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » (مريم : ١٧) . غير ان الاسلام اعتبر المسيح نبيا وليس تجسيدا لله . فما يرفضه الاسلام من المسيحية هو اولا مبدأ العلاقة الابوية ، وثانيا الثالوث كما يفهم عادة ، وكلاهما يناقضان النظرة الاسلامية لان ثانيهما يقوم على طبيعة المطلق نفسه وليس على مظاهره ونزولاته . وباستثناء هذين الامرين يكنّ الاسلام اعتبارا عاليا للمسيح ، الذي يلعب دورا مهما خاصا في بعض مراحل الصوفية .

يعتبر الاسلام نفسه المظهر العظيم الثالث للدين الابراهيمي ، بعد اليهودية والمسيحية . ان الثالوث انعكاس للتوحيد ، كما يعلم المسيحيون جيدا ؛ وهكذا فأن المظهر الثالث للدين الابراهيمي هو عودة ، بشكل ما ، الى التوحيد الاصلي ، الى ديانة ابراهيم . ومثلما تمثل اليهودية الشريعة في هذا الدين ، وتمثل المسيحية الطريقة فيه ، يدمج الاسلام الدين في وحدته الاصلية اذ هو يحتوي على شريعة وطريقة معاً . كما يمكن القول ان اليهودية تقوم في الاساس على مخافة الله ، والمسيحية على محبة الله ، والاسلام على معرفة الله عز اسمه . الا ان هذا التقسيم مسألة توكيد ، فأن كل دين كامل يحتوي على هذه النواحي الثلاث في العلاقة القائمة بين الله والانسان .

فاذا كان الاسلام ، اذاً ، هو « الدين الحنيف » ، فهو ايضا « خاتمة الاديان » . والواقع انه في هذا التخصص يصبح الاسلام ليس مجرد دين بقدر ما يصبح دينا معينا للقبول به واتباعه . واذ اكد الاسلام على ما كان كل الانبياء قد اكدوا عليه عبر العصور ، فانه شدد على صفته الكلية كالدين الحنيف . واذ اعتبر نفسه آخر الاديان ، وهو امر لم يفعله اي دين آخر قبله ، فانه حقق كونه دينا خاصا مما يميزه عن سائر الاديان ومما يعطيه شكلا خاصا . ليس في الحقيقة من دين يستطيع ان يكون دينا كليا : يمكن ان يكون كليا في طبيعته الباطنية ، اما ظاهرا فيجب ان يكون دينا خاصا يجذب الناس الى اعتناقه واتباعه عن

طريق اعمال واعتقادات معينة . فعلى الانسان الذي يعيش في حيز الجزئيات ان يبدأ بالجزئيات حتى يصل الى الكليات. وجمال الدين السماوي هو ان الدين ، بالرغم من كونه صورة في الظاهر ، ليس صورة مغلقة ولكنه صورة تنفتح من الباطن على اللانهاية . انه طريق من الجزئي الى الكلي ، شرط ان يكون الانسان مستعدا لقبول الصورة واتباعها وان لا يرفض الصورة باسم المعنى الذي لا يوصل اليه الا من خلال عبور الصور التي هي اجزاء من الوحي نفسه . وكان على الاسلام ايضا ان تكون له صورة معينة ، وقد جاءه ذلك من صفته الخاصة كخاتمة للاديان . فبالرسول وصلت دائرة النبوة الى خاتمتها. واعلن الرسول ، وهو خاتم الانبياء ، انه لن يكون من بعده انبياء ، وقد اثبت التاريخ دعواه .

بالطبع لا يعني مفهوم النبوة هذا ان البشرية لن تأتيها رسالة اخرى من السماء. فالاسلام لا يقول بسير ممتد للتاريخ الى ما لا نهاية له . بل هو يؤمن ببداية ونهاية لتاريخ البشرية الحاضرة ، علامتها حوادث يوم القيامة التي وصفها القرآن الكريم والحديث الشريف . انما الى ان تحصل هذه الحوادث لن يأتي نبي آخر . ويؤمن الاسلام ، كالمسيحية ، بمجيء ثانٍ للمسيح ، وليس بمجيء نبي جديد ، في نهاية الدائرة . الى ان يحصل ذلك الحدث ، الاسلام هو آخر الاديان والرسول هو خاتم الانبياء ولن يلحق به اي وحي من السماء .

هذه الصفة الخاصة للاسلام كآخر الاديان في الدورة النبوية تعطيه القوة على الجمع والتأليف التي يمتاز بها. فبما انه كان خاتمة الوحي اعطاه الله تعالى القوة على صهر ودمج كل ما ينسجم مع نظرته من الحضارات السابقة . لكن هذه القوة على الدمج والتوحيد لم تعن قط الاتيان الى اتحاد الشكل الذي هو نقيض للتوحيد الاساسي . فلم يكن الاسلام قوة تعمل على انقاص الاشياء الى اتحاد الشكل من جهة مادية، ولكنه كان قوة تعمل على الصهر الذي يحافظ على الملامح المحلية والصفات الخاصة بينما هو يوحدها في نظرته الكلية . فجمع الاسلام في هذه النظرة ما كان يتفق والشهادة بأن لا اله الا الله ، وهي المعيار النهائي في رسخ العقيدة في الاسلام . واهتم الاسلام بكل ما لا يناقض وحدة المبدأ المقدس وبالتالي ما لا يناقض وحدانية الطبيعة لا بالشكل ولا بالمحتوى ، وغالبا ما دمجه في بعض مذاهبه الفكرية .

الاسلام وحكم الاديان الاخرى

وهكذا فان الاسلام لم يهتم بمعبد جميع الالهة (البانثيون) اليوناني الذي وصفه هوميروس وهزيودوس ، ولكنه اهتم كثيرا بالعقائد الحكمية للمذاهب الفيثاغورية – الافلاطونية ، والارسطوطالية ايضا ، التي تبنت الوحدة الالهية. وكذلك لم يهتم الاسلام بالثنائية الزردشتية ، ولكن مذاهب معينة (كالمشرب الاشراقي للسهروردي) صهرت آراءه الزردشتية بالملائكة مع الفلسفة الاسلامية ، وخاصة لان تلك الآراء كانت تتفق مع

نظرة الاسلام وكان دمجها ممكنا .

نظر الاسلام ، اذ جاء في آخر دائرة النبوة ، الى الحكمة الواردة في جميع الاديان قبله كما لو كانت من حكمه هو ولم يتوان قط عن الاستعارة منها وعن تحويلها الى عناصر تكوّن نظرته هو الكلية . غير ان هذه الصفة للاسلام لا تعني ابدا ان الاسلام لم يكن خلاقا اصيلا او انه لم يكن يملك نبوغه الروحي الخاص به الذي يدل عليه كل مظهر من مظاهر الحضارة الاسلامية . اصبح الخلق الاصيل يعني اليوم مجرد اختلاف الشيء عن الاشياء الاخرى ، حتى ولو كان هذا الشيء خطأ . اما في الاسلام (كما في كل دين) فأن الخلق الاصيل يعني التعبير عن الحقائق الكلية الخالدة بشكل متجدد يعبق باريج الروحانية ويدل على ان التعبير لا يأتي من التقليد الخارجي بل من مصدر الحق نفسه .

قبلت المسيحية الفن الروماني الواقعي المنحط الذي وجدته عند مجيئها وطورته ، بذكائها الخارق ، الى فن « غير دنيوي » قوي جدا ، كما يدل على ذلك بوضوح تحويل فن النحت في نواويس القرن الرابع للميلاد . وقبلت المسيحية الفلسفة اليونانية — الرومانية ، بكل ما فيها من ميول دهرية واستدلالية متأصلة في مذاهبها المتأخرة ، وطورتها الى لغة تعبر عن اسرار المسيحية ، كما في كتابات آباء الكنيسة الاوائل . وينطبق هذا ، في الواقع ، على كل دين سماوي حي اذ هو ، كتركيب عضوي حي ، يأخذ المادة من محيطه ويحولها الى ما يوافق حاجاته العضوية الخاصة . والحيوية الروحية ، شأنها في ذلك شأن العضوية ، لا تأتي عن طريق الخلق من العدم بل عن طريق تحويل الامور وصهرها في قالب يأتي أصله من السماء . لذلك كان من دواعي الغرابة ان ينكر كتّاب مسيحيون معاصرون الناحية الابداعية في الاسلام ، بينما يمكن تحويل الحجج التي قدموها ضد الاسلام الى حجج ضد المسيحية ايضا وبقوة اكبر احيانا . فاذا اراد الباحث ان ينكر ابداعية دين ما بحجة وجود افكار مظاهر الاديان الاخرى فيه ، فأن المسيحية لم تكتفِ بتبني النظرة الدينية اليهودية والفنون والفلسفة اليونانية والرومانية بل اخذت ايضا عن الحضارة الرومانية نظمها السياسية والتشريعية بكاملها ، بينما للاسلام نظم تشريعية واجتماعية خاصة به . وان كان لابد من اتهام الابداعية الاسلامية فأن الاتهام قد يأتي من الذين ينكرون الوحي اجمالا ، وبالتالي لن يأتي من جانب المسيحية منطقيا .

البذرة والشجرة

باختصار ، يقوم الاسلام على علاقة كلية بين الله عز وجل والانسان ، الله في اطلاقيته والانسان في طبيعته العميقة التي تتجلى فيها اسماء الله الحسنى . ويقيم الاسلام ادراكه لهذه العلاقة المركزية على العقل والارادة والنطق ، وبالتالي على التوازن اليقين . وقد حاول

اقامة التوازن في الحياة بتصنيف كل حاجات الانسان الطبيعية وميوله ، وكل الرغبات والحاجات الطبيعية كالطعام والمأوى والتناسل وغيرها التي اعطاها الله وهي ضرورية للحياة البشرية ، بتصنيفها كلها في مجـار تخضع للشريعة . وعلى اساسات التوازن المذكور ، مكّن الاسلام الانسان من بناء قلعة روحية تقوم على العقل والحقائق الملكوتية والتأكد من ان لا اله الا الله . على هذا الصعيد تختلف طريقة الاسلام عن طريقة المسيحية التي يلعب الحب الدور الرئيسي فيها ويكون الفداء الفضيلة الرئيسية . ولهذا السبب كثيرا ما انتقدت المسيحية الفضائل الاسلامية واتهمتها بالاعتدال وباقامة التوازن الاجتماعي فقط ، بينما يرى المسلم في المحبة المسيحية نوعا من الفردية يقسم العلاقة الكلية بين ما هو فطري في الانسان والعزة الالهية . ومع هذا فأن كلا الفضائل الاسلامية التي تؤدي الى توازن يمهد الطريق امام العقل والحقائق الالهية ، والتوكيد المسيحي على المحبة والفداء ، كلاهما معـا طريقة يستطيع الانسان ان يهرب بواسطتها من سجن روحه الشهواني وان يدرك الغاية السامية التي من اجلها وضع على الارض .

الاسلام وحي مقدس وُضع كبذرة في قلب الانسان الذي تقبل هذه الرسالة السماوية . والانسان هو الكأس . لا يستطيع الانسان ان يحطم الكأس ؛ جل مـا يستطيعه هو ان يطهرها ويعدها لقبول اكسير الحياة الالهي . فانما بافراغ الانسان للكأس، يصبح مستحقا لتقبل الرسالة السماوية . وانما بصيرورة الانسان حقلا مستحقا ، تنمو فيه البذور المقدسة . فقد وُضعت بذرة الاسلام في قلب الانسان بواسطة القرآن الكريم وبواسطـة النبي وسيلة الدعوة بين الناس . ومن هذه البذرة نمت تلك الشجرة الروحية التي خلقت مدنية من اعظم مدنيات التاريخ ، شجرة يعيش ويموت تحت ظلهـا جزء كبير من الانسانية اليوم ، ممن يجدون فيها معنى للحياة وتحقيقا لها .